كتاب من كتب ..

حاولت فى الواقع فى تتبعى هـذا الطويل لبعض القصص التى جمعها وهب فى كتابه أن أشير الى الدلالات الانسانية العامة التى تهدف الى ابرازها هذه القصص .. وكنت بهذا أحاول أن اثبت أن العرب حين عرفوا القصص لم يقفوا به عند حد الرواية الشيقة الممتعة التى تحكى حكمة أو تذهب مثلا وحسب ، وانما هم عرفوا من القصص ما له من المحتوى الدرامى ما يحاول أن يكشف عن النفس الانسانية فى جوهرها الحقيقى ، وما يحاول ان يرسم انصراع الذى يخوضه الانسان ليحقق ذاته ويجد نفسه..

وكتاب التيجان واحد من الكتب القلائل التى وصلتنا لتمثل هذا العصر ـ عصر التجميع ـ وهو يشير اشارة قوية الى وجود ثروة طائلة من هذا القصص الكبير الخالد ..

ولعلك تلاحظ أننى حدثتك من خلال الكتاب قبل أن أحدثك عن الكتاب نفسه . ولعلنى قصدت الى هذا قصدا ، لأنى أحسب أن ما أضاع قصصنا العربى كله هو هـذا الذى انصرف اليـه الباحثون من الحديث عن الكتاب لا من الكتاب .. بل هم حين اخذوا من الكتاب اخذوا الشواهد من شعر وخطب ، واهملوا هذا القالب القصصى الذى جاءت فى سياقه هذه الشواهد التى اخذوها .. ثم وقعوا بعد هذا كله فى حرج ، فما هذه الكتب الا

كتب قصص لم يقصد منها جمع ديوان العرب ؛ ولا رصد انتاجهم فى الخطب .. وهكذا تولد الشك فى ان تكون هذه الشواهد منتحلة ، ودار الجدل العنيف حول هذه القضايا الفرعية ؛ دون عناية حقيقية بالقضية الأصلية . وهى قضية ما فى هذه الكتب من قصص لها دلالات ، بل وقبل أن تكون لها دلالات هى جزء خطير وهام من تراثنا الأدبى ..

أما الكتاب الذى نحن بصدده فنحن نرجح انه الف مرتين ، الأولى حين رواه وهب بن منبه ، والثانية حين كتبه ابو محمد عبد الملك بن هشام راوى سيرة ابن اسحق .. ونحن نعنى بكلمة التاليف هنا الجمع والترتيب والصياغة .. فلا شك أن وهبا كان يجمع ما يقع له من قصص ملوك حمير وما وعته ذاكرته مما عرفه اما عن طريق الرواية ، واما عن طريق القراءة .. فانت تلحظ فى الكثير من قصص الكتاب انها تكاد تكون مختصرا لأصل اكبر حجما ، واكثر تفصيلا .. تلمح هذا مما يعرضه اثناء روايته للقصة من حوار تحس به مقطوعا لم يوصل ، أو لما يلجأ اليه من ايجاز فى بعض مواضع القصة بينما تسير باقى أجزائها فى اطناب يعنى بكل التفصيلات والجزئيات ..

والأصل فى هذا الجزء انه رواية تعتمد على ما قراه وهب من كتب ، فهو يقول فى الصفحة الثانية من طبعة حيدر اباد : « قرات ثلاثة وتسعين كتابا مما أنزل الله على الأنبياء فوجدت فيها ان الكتب التى أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابا ، أنزل صحيفتين على آدم بكتابين ، صحيفة فى

الجنة وصحيفة على جبل لبنان .. وعلى شيث بن آدم خمسين صحيفة ، وعلى أخنوخ وهو ادريس ثلاثين صحيفة ، وعلى نوح صحيفتين ، صحيفة قبل الطوفان وأخرى بعد الطوفان ، وعلى هود أربعا ، وعلى صالح صحيفتين ، وعلى ابراهيم عشرين صحيفة . وعلى موسى خمسين صحيفة وهى الألواح ، وعلى داود الزبور وعلى عيسى الانجيل وعلى محمد الفرقان » .

ويبدأ وهب قصصه منذ خلق الله الكون ، وتحكى قصصه خلق الحيوانات والسماء والملائكة والنجوم والجنة والنار ثم ابليس والجان من شرار النار ، ثم خلق الأزمنة وقسمها ثم خلق الأرض .. ثم كيف غضب الله على الجان فأخرجهم من الجنة وأسكنهم الأرض فى جزائر البحار وقفار الأرض .. ثم تمضى القصص لتصل الى خلق آدم ، وبعده الى خلق حواء .. ويقف الكتاب بعد هذا مستأنيا فى قصة خلاف قابيل وهابيل ، يقف وقفة الفنان الذى يختار المواقف التى يستطيع أن يبرز فيها معانى انسانية مشتركة وعامة .. ويستمر بعد هذا متتبعا تطور العالم وبلبلة الألسنة ونشأة اللغة واختلاف الأجناس .. وحين يصل من كتابه الى صفحة (٥١) يبدأ فى كتابة سير ملوك حمير ملكا ملكا ..

ووهب يرجع الى بعض معاصريه من الرواة والقصاصين فى أجزاء كثيرة من قصصه .. ولكنه لا يرجع اليهم الا فيما له علاقة من حيث الزمن بالعصور الاسلامية . فهو يرجع الى كتب الأخبار فى رواية عن سليمان بن عبد الملك بن مروان . وهو فى

بعض الأحيان لايذكر من يرجع اليهم من معاصريه كقوله فى اول قصة ذى القرنين « رفع الحديث الى امير المؤمنين على بن ابى طالب كرم الله وجهه انه قال : حدثوا عن حمير فان فى احاديثها عبرا » ..

فمصادر وهب اذن هى القراءة والرواية معا .. والدكتور حسين نصار فى كتابة (نشأة التدوين التاريخى عند العرب) يأتى برواية ابن سعد فى طبقاته عن الكتب العديدة التى قراها وهب ويعقب على هذه الرواية قائلا « ولكننا نميل الى الشك فى هذا الصدد ، ولعله استقى أغلب هذه الأخبار من أهل الكتاب الذين اتصل بهم فى موطنه اليمن ، الذى اشتهر منذ الجاهلية باستيطان هاتين الديانتين وتصارعهما فيه » وربما كان الدكتور نصار متأثرا فى هذا النفى بالفكرة الشائعة عن عدم معرفة العرب للكتابة ، ولكن ورود النص الذى أوردناه عن وهب بن منبه نفسه فى صدر كتابه دليل واضح على معرفته القراءة ، وعلى وجود صحائف قراها .. وسواء كان صادقا أم كاذبا فالذى لا شك فيه أن القراءة كانت أحد مصادر ما جمع من قصص وما قدم من حكايات .. ذلك أن الرواية تعنى فى اغلب الأحيان بالحدث ذاته ، وهى ان خرجت منه بدلالة فهى انما تخرج بدلالة سطحية عابرة ، اما الاعتماد على الكتابة فهو يعنى دلالات أعمق واكثر خطرا ، وقد يكون هذا الفرض خاطئا ولكنى أحب أن اسوقه لما فيه من نسبة من الترجيح تعزز ما نراه من عمق دلالات القصة العربية التى دونت فى هذا العصر،عصر التجميع..

والأصل فى قصص وهب كما ترى أنها روايات عن ملوك غابرين من ملوك اليمن . والواقع أن ملوك حمير كانت لهم أهميتهم فى حياة الشعوب قبل ما نعرفه من تاريخ العرب .. وليس لنا من أدلة الا ما تسوقه أمثال هذه القصص التى يحكيها وهب ، وما ورد فى قصص الأمم التى عاشت معهم فى حقبة زمنية متقاربة ، فالدكتور يحيى الخشاب يقص فى كتابه (حكايات فارسية) فى القصة المعنونة بقصة (العلم الايرانى) والأخرى التى تروى أعياد الفرس ، أنه فى عصر (جمشيد) كان بجوار بلاد الفرس فى بلاد حمير ملك عربى عظيم « كانت أخباره تسير فى ايران ، فيعجب أهلها بعدله واستقامته وحسن سيره فى رعيته وكان التجار يفدون من حمير على ايران فيقصون على أهلها من عظمة (مرداس) وحب الأعراب له ما كان يقربه من قلوب الايرانيين ويمكن له فى قلوبهم، وكانوا ينتقلون من ايران الى بلاد حمير فيتحدثون فيها عن جور جمشيد وبغيه وغروره ومحاولته قهر الفرس على عبادة تماثيله، ثم يظلون فى اغراء لمرداس حتى يغزو ايران ويقتل جمشيد ، اذ قطعه نصفين بعظم سمكة .. وتمضى القصة فتقول ثم يظلون فى اغراء لمرداس حتى يغزو ايران ويقتل جمشيد » وولده الذى يليه فى الحكم يعتبر من أبناء بنات الايرانيين ، ولذا فان جيوشه قوبلت بالترحيب فى ايران » .. وما تنتهى القصة الا وقد أصبح ملك حمير ملكا على ايران ثم يقتله ابنه بيورست ليغدو ملك حمير وايران ..

فأساطير الفرس اذن تثبت هذه الحضارة العريقة التى

كانت للملوك حمير ؛ بل سبت الى جوار هذا ما كانت بلادهم تتمتع به من رخاء وأمن وعدالة ، ولعلها تثبت أيضا ما كان لهم من نفوذ وسطوة ، وما قاموا به من فتوحات ..

وهناك شيء هام وخطير الدلالة فى هذه الأساطير الفارسية. فالأسطورة التى تتناول حياة جمشيد تأخذ أشياء كثيرة من قصة سليمان التى يرويها وهب .. فهى تأخذ مثلا حكاية الخاتم الذى كان يلبسه فيسخر الجن ويخضع الطير ، فكلاهما — سليمان وجمشيد — كان يملك هذا الخاتم .. وفى القصة العربية يفقد سليمان الخاتم عندماينسى ذكر الله يلهيه عنهرؤيته للخيول الخضر، خيول الماء .. أما فى القصة الفارسية ، فجمشيد يفقد الخاتم بحيلة ملك البحر (صخر) الذى يسرقه من الأمينة عليه .. والنتيجة فى القصتين متشابهة ، فسليمان يتوه فترة من الزمن، بينما يتولى مكانه شيطان يتزيا بزيه ،وجمشيد يخرج من قصره وقد تغيرت صورته وراح يلتمس الرزق فى معاونة الصيادين فى البحر . وفى القصة العربية يعود الخاتم لسليمان بعد أن علمه الله أن الملك لا يدوم لأحد ، أما فى القصة الفارسية فجمشيد يعثر على الخاتم فى سمكة يصطادها .. وفى فترة غياب الاثنين يحكم الشيطان مكانهما ويستحل مالهما ونساءهما.. ثم تبرز فجأة نقطة التقاء واضحة حين تذكر القصة الفارسية أن وزير جمشيد اسمه آصف.. بينما تذكر القصة العربية أن وزير سليمان اسمه آصف ابن برخيا ..

ثم تفترق القصتان، لولا أن نهاية جمشيد تأتى على يد بطل

حمير وبرضاء من أهل ايران .. وهذا الجزء من الارتباط يشير بوضوح الى أن الأصل هو القصة العربية ، والصورة هو القصة الفارسية . فبينما القصة العربية تسير على نمط باقى القصص التى رويت عن ملوك حمير ، نرى القصة الفارسية تستورد بطلا حميريا تختم به حوادثها .. ونستطيع أن نقول ان الفرس عرفوا فيما عرفوا عن ملوك حمير هذه الأساطير ، فنقلوا منها ما زودوا به قصصهم .. والواقع أن فكرة نقل العرب فى قصة سليمان عن الفرس لا تنهض أمام المناقشة ؛ فالجزء المشترك ليس أساسا فى القصة العربية بينما هو جوهر فى القصة الفارسية .. والقصة العربية تخلو من كل سمات اتصال بالفرس ، بينما القصة الفارسية تعتمد فى كثير من أجزائها على علاقة متينة بالدولة الحميرية وملوكها .. وهى تعترف باحتلال عربى لايران استمر زمنا .. بل ويدخل أحد ملوك حمير أساطير الفرس باسم الضحاك العربى ..

والواقع أن هذه النتيجة لو صحت — وهى تحتاج الى عدة دراسات مقارنة لاثباتها — لأمكن لبعض المسلمات أن تعود الى مجال البحث والمناقشة من جديد .. من هذه المسلمات مثلا أن معظم الأساطير العربية تعتمد على أصل فارسى .. ولعل هذا الافتراض الذى سلم به كل الباحثين يعود الى أن الأساطير الفارسية عثر عليها واستغلها الباحثون ووجدوا فيها سمات متشابه مع ما للعرب بعد الاسلام من أساطير وقصص .. ولكننا بعد هذه النتيجة نتساءل ، الم تكن الأساطير العربية امتدادا طبيعيا لما

عرفوه قبل الاسلام من أساطير عن تاريخهم وحيانهم ، أخذ منها الفرس ما عادوا فردوه الى العرب ؟ . على أية حال أحسب أننا استطردنا فى هذه النقطة طويلا ، وكل ما كنا نريد أن نثبته منها أن ما يرويه وهب عن ملوك حمير يستند الى أصل أسطورى يتعلق بهؤلاء الملوك ، وأنه لميكن يؤلف منعنده حكايات مختلقة، انما كان يروى ما تناقله أهـــل اليمن عن ملوكهم من حكايات ، وما سطروه فى صحف تناقلوها الى أن وصلت اليه والى غيره من الرواة اليمنيين كعبيد بن شرية الجرهمى مثلا ..

والواقع أن وهبا فى كتابه يحاول أن يلائم بين ما يحكى من تواريخ وقصص ، وبين ما دخل معارف العرب عن طريق الاسلام من قصص ومعتقدات .. فهو يحاول أن يلائم بين ما يرويه ، وما جاء بالقرآن ، فتجده يستشهد بآى القرآن الكريم محاولا التوفيق والملاءمة ، وهو قد حاول هذا فى قصة عاد وثمود ، وقصة ذى القرنين، وقصة سليمان ، وقصة خلق العالم ، وسفينة نوح، وغيرها من القصص . وهو يقف عنـــد بعض القضـــايا التى يوردها فى قصته فيناقشها مناقشة من يحاول اثبات صحة قصته رغم تعارضها مع بعض أحكام الدين .. كمناقشته لحكاية تسلط الشيطان مكان سليمان على ماله ونسائه ، وكمناقشته لما قاله المفسرون عن ذى القرنين من أنه الاسكندر المقدونى مع مانؤكده قصته من أنه ملك حميرى .. وكربطه بين بعض الأسماء التى يحكى عنها ونسب النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أورد فى قصة الحارث الجرهمى والهميسع الذى هو من جدود النبى صلى الله

عليه وسلم ، وكما فعل فى قصته عن مضر وأولاده وهى من أروع قصص الكتاب .. وكذلك تشير حكايات وهب الى ما فى الجزيرة من كنوز مطمورة وقبور مختفية مليئة بالآثار التى تنم عن ملوك حمير .. والواقع انك فى قصص وهب هذه تحس بعقلية تحاول بروح عصرها أن توائم بين ما تعرفه وبين ما يجب أن يقال .. وتحاول أن تثبت ما تقول مرة بالبرهان العقلى ، ومرة بالمناقشة، ومرة بالاستناد لحديث شخصية مرموقة كالنبى صلى الله عليه وسلم أو على بن أبى طالب كرم الله وجهه ..

وفى حكايات وهب تلمح اتصالا كبيرا بكل شعوب الأرض من الهند والصين والأندلس والترك والفرس والصقالبة والأحباش والمصريين وسكان الجزائر وغيرهم . مما سبق عصر التدوين ، هذا الاتصال الذى حدث بعد فترة طويلة من ظهور الاسلام وبعد انتشاره بزمن طويل .

هذا هو الجزء الذى رواه وهب ، ثم يأتى بعد هذا دور ابن هشام، فتراه يخرج من سياق القصة ليضيف شيئا من عنده ثم يعود الى قصة وهب من جديد .. وتراه يضيف هذه الأشياء كأنما ليكمل القصة زمنيا . فهو يضيف ما يحس انه يكمل القصة من عند النقطة التى وقف فيها وهب .. أو يضيف الى القصة جديدا لم يعاصره وهب ، وهو يعتمد فى رواياته على مصادر متعددة منها محمد بن اسحق ، ومنها الهمدانى ، ومنها الكلبى ، ومنها حكاية يحكيها هو عن حوار دار بين وهب وعبد الله بن العباس وكعب الأحبار عن ذى القرنين مثلا .. فابن هشام يفرض

شخصيته على الكتاب فرضا ليضيف قضية هنا ، وحكاية هناك، وبيتا من الشعر أو خطبة فى بعض الأحيان .. الا انك لا تلمحه يتدخل فيما يتعلق بالعصور المتأخرة التى تقرب من الاسلام او التى تدخل فى الاسلام فعلا .

ويقول الدكتور حسين نصار عن وهب وما فى كتابه من شواهد للغات المختلفة « قد نخرج من هذه الشواهد ونحن على ما يشبه الاطمئنان من معرفة وهب باللغة العبرية والسريانية ، وفى نفسنا شىء من معرفته باللغة الآرامية والحميرية ، ومما يزيدنا يقينا بمعرفته اللغات غير العربية ذلك القول فى كثير من المراجع بأنه قرأ الكتب أو العديد منها ، وأن تفسيره للكلمات العبرية والسريانية كان صحيحا فى أغلبه ، وربما استمد وهب بعض معارفه مما كان شائعا من قصص بين أهل الكتاب وان لم يوجد فى انجيل أو توراة » فوهب اذن ليس مجرد رواية وانما هو انسان يعرف .. أعنى أنه يجمع بين القدرة الفنية فى الرواية الدقة فى الرجوع الى الأصل الأسطورى والتحقق منه .. وصاحب العقد الفريد يعتبره فقيه اليمن فى روايته الطويلة عن ابن أبى ليلى عن أسئلة عيسى بن موسى له عن فقهاء عصره اذ سأله: من فقيه اليمن؟ فقال: طاووس وابنه، وابن منبه..

ولوهب أعمال أخرى لم تصل الينا وانما جاء ذكرها فى بعض الكتب فينقل الدكتور نصار عن كشف الظنون نصا يدل على انه ألف كتابا فى المغازى .. كما ينقل عن الأستاذ هوروفتس انه ينسب لوهب كتاب المبتدأ ، كما يروى عن طبقات ابن سعد

ان له كتابا يسمى كتاب العباد ، كما ينسب اليه آخرون كتابا بعنوان الاسرائيليات ..

والواقع أن كل هذه الكتب لم تصل الينا وان وصلت الينا صفحات مفردة من كتابه فى المغـــازى .. وربمـــا لو اكتشفت هذه الكتب القت الضوء على كثير من الأساطير العربية التى لم يتسع لها كتابه التيجان .. والواقع أن كتاب التيجان نفســـه لم يكن معروفا الى عهد قريب جدا فالأستاذ احمـــد امين يقول فى صفحة ١٦٩ من كتابه فجر الاسلام « وابن خلكان يقـــول انه رأى كتاب وهب بن منبه فى تاريخ اليمن ولكن فى عهدنا هذا لم يصلنا شيء يصح أن يوثق به الا قليلا » ..

وحتى الآن لم يصلنا الا النزر القليل الذى يشير اشـــارة لا تقبل الشك الى تراث حى خطير تبلور فى هذا العصر الـــذى نتحدث عنه ، عصر التجميع . الا اننى لا احب ان اترك الحديث عن هذه الفترة دون أن أقف قليلا عند كتاب آخر خطير فى دلالته وفى محتواه ، ذلك هو كتاب « أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى اخبار اليمن واشعارها وانسابها » .

* * *